

أسماك نهريّة . . .

فيصل ع. حاجم

وجوها حزينة متطاولة تتذكر أشياء سعيدة حدثت فيما مضى : أطفال يسبحون وفتى ضئيل الجسم يمسك شعر فتاة بوله يسحبها اليه فتفوس في الماء ، وتحول الضحكات الى طرطشة مكتومة .

تعلم منذ الطفولة كيف يعجن الطين ليجعل منه وجوها آدمية تمثليء بالحزن أو الفرح ، يعجنها لتكون وجوها قروية يقابلها كل يوم وهي تعرق فوق الأرض أو تتزواج أو تمرض وتذوي ، في كل بيت من بيوت القرية صنع تمثالا ، شيئاً رائعاً من الصلصال ، بث فيه كل أفراحه وأحزانه ، والجميع يحسدون هذه القدرة لديه ، واكنهم كانوا يفخرون به ويدفعون له النقود لكي يزين لهم بيوتهم ، أو لينحت لهم وجوههم ، أو وجوه موتاهم من صور قديمة ، وجه واحد بقي يصنعه لفترة طويلة : اختار له أفضل طين وجده ، وكان يسأله أخوه : -

- لم كل هذا التعب ، انها لا تميل اليك ؟

كان يفضب ووجهه متفصد بالعرق : -

- لا يهم ، انها ابنة عمي وأريد أن أهديها هذا التمثال . . .

وفي داخله أشياء رهيبة تعتمل ، ورغبات تمور لاهبة ، تتوهج بأصابعه التي تشكل كتلة الطين ، وتحفر التجاويف ، وتسوي خصلات الشعر فوق الجبهة ، والغمازتان في الوجه ، وأشياء أخرى لم يكن أحد يراها في وجه ابنة عمه سواه ، لا أحد غيره قد انتبه لزيادة ضئيلة من اللحم تحت ابطها الايسر أو للالتواء البسيط الذي يحدث في شفتها السفلى حينما تكون غاضبة أو لبروز العضلة التي في الوجه تحت العينين حينما تتكلم بجدية مع شخص يكبرها .

أخرج قبضة ريح محصورة في صدره وملأت أنفه رائحة النباتات وغبار الطلع ورائحة الطحالب والعشب اليابس ، وبدأ يهبط من فوق المرتفع التراابي صوب ثلثة في سياج الطوب باتجاه طريق تراابي محدد بصفين من أشجار النخيل وساقية الى اليسار ، سار تظله مراوح

عند الجسر حيث يتفرع الطريق الى عدة ممرات تغور بعيدا في عمق بساتين النخيل توقف وفكر أنه سيسير بموازة حائط الطوب ورأى الى الاغصان المتدلية والنجمات الحمر التي تتوج الحائط ، والاذرع التي بلون التراب والعائدة لأشجار البمبر ، والتي تخيلها - عندما مر من تحتها - انها تمتد لتمسك به ، وأبعد رأسه كأنما يريد ان يزيد من المسافة بينها وبين رأسه الحليق ، وبطرف عينه كان يرى الى مراوح النخيل المهتزة فوق مياه الساقية المظلمة ، ودروع السلاحف المشمسة ، والنباتات التي نمت فوق الربوة ، ومسالك السواقي التي تغيبها صفوف أشجار النخيل ، وقطع الأرض المزروعة المرصعة بالورود المدونة ، أحس بقدميه خفيفتين تحلقان فوق الأرض ، وبالتراب الدقيق الذي تثيره قدماه كلما مسّتا الأرض ، ومن أمامه مرت كلبة يتبعها كلب يمتلك بقعة سوداء فوق رقبته ورأهما من فجوة في جدار الطوب ، ويمضيان بعيدا صوب كتلة من سعف النخيل قطع قبل فترة طويلة ، جدار الطوب ليس أعلى من قامته ، وكان رأسه يطفو فوق الكتلة الترابية ، وعيناه ترقبان مساحات الأرض المسيجة . وأدخنة البيوت القصبية . كان يرهف أذنيه ليسمع أوطأ الاصوات : يسمع مزيجا من طرطشة مياه السواقي والطيور والضفادع وهسيس سعفات النخيل ، واحتكاك أوراق أشجار البمبر ، أو سقوط الاثمار الناضجة ، أو نباح كلاب بعيدة أو حركات عنيفة لجرذ تحت أكوام الحطب ، تساءل وهو يشعر بجسده يطفو فوق كل الاصوات : أحقا انها تعيش هنا كعروس صغيرة لا يزال حناء العرس يخضب كفيها وقدميها ؟

من فوق رأسه مر سرب من طيور وجلة اختفت بعيدا خلف هامات النخيل أو اندست بين العذوق وتشابك السعفات ، أو ذهبته محلقة بموازة ماء السواقي . تحسس شيئاً تحت ثيابه ونظر ناحية نهاية الدرب الذي تظله أشجار الرمان ، وتفيبه انحناءات الطريق ، سرت في بدنه رجفة أحسها تشمل كل ما موجود ورأى للأشياء

النخيل وأنتابته رغبة قوية بأن يغمض عينيه ، أخذ يخلق فوق الارض الترابية ويمد أصابعه ، فتمسك بالدخان الصاعد من البيوت الطينية المنتشرة بين الممرات المائية والمساحات المزروعة ، وتسوي هذه الاصابع كتل الدخان وتصنع منه وجها كبيرا لفتاة بيضاء بأنف قصير وجبهة عالية وبالتواء بسيط في الشفة السفلى ، تضحك فيزول الالتواء ، وتتطاير خصلاتها بعيدا فتظلل الدروب والمساحات الواسعة ، يسترسل شعرها بعيدا وينتشر ويدوب في السماء المفتوحة ، انتبه الى جذع النخلة الذي مد بين طرفي الساقية ، وعندما كان يسير فوقه لاحظ مياه الساقية الغرينية وتخيل الالوان حوله فاقعة بلون الدم .

توقف أمام باب الصفيح وقره نقرتين ، وسمع صوتا من جوف الدار :
- من ؟ صالح ؟

فكر ان صالح هو اسم زوجها ، فتحت باب الصفيح فامتلات الفتحة العليا بوجهها الملقوف بفقطة لم تلفها جيدا ، صاحت بصوت خفيض كأنما فوجئت :
- ابن عمي ؟

انفتح باب الصفيح تماما ، وطبعت فوق خده قبلة سريعة ، كانت كلها في الضوء بثوب أبيض رائع ، وضع يده فوق رأسها وقبل يده ، صاحت به :
- تفضل ...

دخل مرتبكا ، وملأت خياشيمه رائحة عطرها ، ممزوجة برائحة دهان الخشب الحديث ، وتحسس بيده الفراغ ، كانا في الحوش فسبقتة الى غرفة طينية وفتحت له الباب :

- أدخل ، زوجي في المزرعة ، وعمي وعمتي ذهبا الى المدينة ليتسوقا . دخل الغرفة وعندما اعتادت عيناه الظلام استطاع أن يرى قطع الاثاث الجديدة ، و « دشداشة » بيضاء معلقة فوق الحائط بمسمار ، وقال في نفسه وهو يجلس : « انه ثوب زوجها : أتلوث أطرافه قطرات الدم ؟ » شعر بنار رهيبه تستعر في داخله وتكويه ، وود لو يبكي ، لو يصرخ مثل طفل ، ولكنه تنهد تنهيدة مسموعة ، وسمعها تقول :
- سأحضر لك كوب لبن .

بقي لوحده في الغرفة وسمعها من الحوش تقول :-
- كيف حال أهلي ؟

رد عليها بصوت عال لتسمعه ، وهو يتحسس ثيابه ويرتب وضع جلسته :
- بخير .

عندما دخلت الغرفة كان بيدها اناء لبن كبير ، أخذه منها :
- لقد تسرحت من الجيش .

اقتربت منه وجست يده وهو يشرب اللبن :
- أنت مريض ، ساخن مثل التنور .

وضع اناء اللبن ، وابتسم :
- انني بخير ..

تحسست وجهه مرة ثانية ، وامتلات خياشيمه برأحتها :
- انك ساخن ، سناخذك أنا وصالح الى الطبيب .

شرب ما تبقى في الاناء :
- انني بخير صدقيني ، انها ضربة شمس ليس الا !

تحركت في الغرفة كأنما نسيت شيئا مهما :
- هل أعمل لك الشاي ؟

تنهد ونظر صوب السقف وملأت عينيه التماعات الضوء فوق مسرى أعمدة الخشب التي تسند السقف ، وعندما التقت عيناه بعينيها :
- لا . كيف حالك ؟ هل أنت سعيدة ؟

- أجل ، وأنت ؟

كبت زفرة طويلة كادت تخرج من صدره ، وتابع مسرى الخشب المتعرج والتنوعات الصغيرة في الاعمدة :
- لقد تسرحت من الجيش وسأساعد أبي في الارض ...

ضحكت ، وسألته :
- ألم تكمل تمثالي ؟

شعر بالسرور ، وأخذت أحزانه تتبخر :
- لقد أكملته ، ولونته ...

للمت ثوبها وجلست قبالة متكئة الى جدار الطوب مركزة وزنها فوق قدميها :
- انني أريده ، انه لي ، انت لم تعطني هدية عرسية .

أحس بالارتباك ، وشيء يقبض على قلبه ، ولكنه قال بمرح وبصوت متوتر :
- أريده أن يبقى لي . أما هدية العرس فقد جلبتها معي لك ولزوجك ، وسأعطيها لكما معا ...

في فيء شجرة البمبر فرشت له « بساطا » من أوراق البردي مزينا بالمنائر والقهب والادعية ، وتمتد ظلال شجرة البمبر فوق مياه الساقية ، ثنى المخدة ووضعها في حضنه وأخذ يحدق الى المياه التي تنساب بسرعة في الساقية لتسقي الاراضي المزروعة ، وعندما يبحث عنها بعينه يراها بين نباتات الجت ، أو تقلم الاشجار ، أو تعيد حفر مجاري الماء الضيقة بين مساحات الارض المزروعة ، أو تنثر الحبوب للدجاجات المتجولة في الساحة أمام الدار ، شعر بالخدر يشمله وبعينه تثقلان . وضع مخدة الريش جانبا واستند بظهره الى شجرة البمبر وفي

فتحتي عينيه الضيقتين كانت ترسم البطات سابحة ،
والعصافير الدورية تبني أعشاشها أو ترتوي من مياه
الساقية ، وثوب ابنة عمه المراكش . فتح عينيه عندما
رآها مقبلة نحوه كانت تحمل في يدها صحنًا ورغيف
خبز :

— أنمت ؟

عدل من وضع جلسته :

— أجل قليلا ...

وضعت أمامه الصحن ورغيف الخبز :

— لقد قلت لك بيضتين ...

عندما رأى الأكل أمامه ، تذكر أنه لم يأكل شيئًا منذ

الصباح ،

ابتسم لها :

— شكرا ، لست جائعًا .

— لقد قلتها لك ، انهما بيضتا دجاجتنا الكبيرة ،

لا أتذكر من أهداها لنا صباح اليوم الأول !

شعر بالخناجر تمزق أحشاءه ، وبألم رهيب يعتصره ،
ونظر صوب مياه الساقية الغرينية ، ولمح بطون الأسماك
الصفيرة الفضية تلمع في الضوء ، أو ظهورها الملحاء ،
وقطرات الماء المتجمعة حول أجنحة البطات المضمومة ،
ورأى الأشياء تتحرك بسرعة وأوراق الأشجار تصفق
بأصوات مدوية ، وبورود شجرة الرمان تسقط فوق
الممرات الترابية ذابطة ، واشعة الشمس التي تتخلل
الأغصان تتحلل الى ألوان ملونة تغلب عليها الزرقة ،
والارض رمادية هشة ، والسماء معلقة في نقطة مجهولة
من الكون تهزها حركة الريح الوئيدة ، فتقلب الأشجار
ومناثر « البساط » والبيوت الى جوانبها وتسيح مياه
الانهار والممرات وتلبط الأسماك النهرية في قعر الساقية
لبطاتها الاخيرة متشنجة ، يرى التماعات الضوء فوق
بطونيا الفضية : أسماك نهرية جاءت تبحث عن الدفء
وعن الظلال في ممرات بعيدة تتخلل البساتين الجنوبية ،
المضمخة برائحة الطلع والورود المتفتحة ، والخبز
المحمص حديثا ، والحناء الحديث الطلاء ، وروائح
الاسماك النهرية المشوية في قعر التناير المتوهجة بالنار
والدخان . «

أغمض عينيه وهمس : — أسماك نهرية متعبة
وحزينة .

— هل نمت ؟

لم يجيبها بشيء ، وسمع أقدامها تمضي ، ثم سمع
حركة الاقدام تتوقف وتخطب شخصا بعيدا ربما كان لم
يعبر الساقية بعد :

— ابن عمي عندنا ، لقد انتظرتك طويلا :

وسمع صوتا أجش بعيدا يقول :

— أهلا به .

الشمس تهبط رويدا رويدا خلف الافق وتحيل
ألوان الاشياء ، وفوق الارض الترابية المحصورة بين
ساقيتين تدرج عربة فوقها امرأة ورجلان يزيدان من
سرعة العربة ويقهقهان بأصوات عالية ومن بين الثيل النبات
فوق الارض تستيقظ حيوات غافية وتنسل صوب
السواقي ، وفوق نباتات الجت التي حصدها تتكوم
مع زوجها يعثان بورود الجت ويرميانها على ظهر ابن
عمها المشغول بقيادة العربة بسرعة فائقة ، والحصان
الوحيد يزيد من سرعته باستمرار ، ويقهقهون ، وفي
لحظات الهدوء يحدثها عن تمايله ، وعن امرأة كان يحبها ،
وعن أصدقائه في الجيش ، والارض ، وحصانه الذي
لا يستطيع ركوبه ، وعن المساء حينما يهبط على الاراضي
الشاسعة وقع ذلك على رجل وحيد غريب يصنع التماثيل
من الطين ، ويبسها تحت الشمس ، ويصطاد الاسماك
في الليل بغالة صنعها بنفسه ، كان يقول لهما انه
يصطاد أسماكا كبيرة في الليل ، فالظلام له سحره
الخاص ، كانت العربة المسرعة تنعكس فوق صفحة الماء
بين ركامات الطحالب والنباتات النامية ، وعند انحراف
الطريق أوقف العربة ، ونزل من خلف الحصان ، فبقي
الحصان ينكت برأسه ، فوجئت وزوجها بتوقف العربة ،
ورأت ابن عمها يخرج من تحت ثيابه خنجرا ملفوفا
بقراه ، ورائته يقدم لهما الخنجر :

— لقد جلبت لكما هدية عرسكما .

أخذه صالح وقلبه بين يديه ووضع فوق كومة

الجت :

— شكرا .

وركب من جديد ، وأخذ يضرب الحصان : أسرع ،
طر بسرعة . « أخذت العربة تسرع ، كان صالح يداعب
زوجته ويضحكان ولم ينتبها للخنجر الذي سقط من
فوق كومة الجت وتدهور في الساقية ، العربة تسرع
صوب البيوت الطينية القريبة ، وكان السائق متصلب
الوجه ، ثم بللت دمعته وجهه ودون أن يلاحظه أخذ
يقهقه معهما ، ويمسح دموعه ، وذهبت العربة تدرج
بسرعة في الطريق الترابي المتتوي .

فلورنسا - ايطاليا

